

تأليف
أسماء بنت راشد الرويشد

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بـــالله مـــن شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْـــتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُــوا اللَّـــهَ الَّـــذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَـــوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فالقرآن الكريم: هو كتاب الله المنزَّلُ على رسوله الأمين ﷺ؛ ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور؛ كما قال تعـــالى: **﴿الـــر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾** [إبراهيم: ١].

هو الروح الذي تحيا به القلوب، والنـــور الـــذي تستضـــيء وتشرق به؛ كما وصفه الله جل جلاله، فقال: ﴿**وَكَــذَلِكَ أَوْحَيْنَــا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَــانُ وَلَكِــنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِــرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢].

أنزل الله القرآن نورًا لا تطفأ مصابيحه، ومنهاجًا لا يضل من نهجه؛ فهو معدن الإيمان، وهو ينبوع العلم، بحرٌ لا ينفد، دواءٌ ليس بعده داء، هو حبل الله المتين، والذكرُ الحكيم، والصراط المســتقيم، هو الحقٌ ليس بالهزل؛ بالحق أنزله الله وبالحق نزل، من عمــل بــه أُجِر، ومن حكم به عَدَلَ، ومَنْ دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم؛ يرفع الله به أقوامًا ويضع آخرين.

إن كتاب الله بمثابة الروح للحياة، والنور للهدايــة؛ فمــن لم يقرأه ويعمل به فما هو بالحي، وإن تكلم أو عمل أو غدا أو راح؛ بل هو ميت.

﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّــاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي القرآن شفاءٌ، شفاءٌ للقلوب والأبدان:

﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الإسراء: ٨٢].

شفاءٌ من الوسوسة والحيرة والقلق؛ لأنه يصل القلــب بربــه وخالقه وفاطره؛ فيسكن ويطمئن؛ ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [**الرعد: ٢٨**]. فهو شفاءٌ من نزغات الشيطان وهمزاته.

يقول ابن القيم: «شفاء للقلوب مـــن داء الجهـــل والشـــك والريب؛ فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاءً قط أعم ولا أنفـــع ولا أعظم ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن».

ولربما ضاقت بالمرء الضـــوائق والمســـالك، وأحاطـــت بـــه المخاوف، واشتد ألمه؛ فلا يجد راحته إلا في بضع آيات من القرآن يرددها: **﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَـا يُؤْمِنُـــونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]**.

يقرأ المسلم القرآن، فإذا بالسكينة والطمأنينة يعمـــران قلبـــه وجوارحه، ثم تقدم النفس بعد ذلك لا تبالي بما يصيبها وما يحدث لها وهي تقرأ قول ربها: **﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَـــا هُـــوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: ٥١]**.

وبذلك تتبخر وساوس الضعف والسوء، ويظهر للـــنفس أن الإنسان مبتلى بالأوهام أكثر مما هو مبتلى بالحقائق، ومهزوم مـــن داخل نفسه قبل أن ينهزم من وقائع الحياة.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُـــمْ فَاخْشَـــوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: **١٧٣، ١٧٤]**.

إننا لنعجب من موقف المسلم، وقد أحاط به الظلام من كـــل جانب وهو يتخبط فيه، أين هو من كتاب ربـــه النـــور المـــبين، والصراط المستقيم؛ وقد قال ﷺ: «**أبشـــروا، أبشـــروا! ألـــيس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟!**» قالوا: نعم، قـــال:

«فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم؛ فتمسكوا به؛ فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا».

نعم إنه نجاةٌ ونور وهداية؛ ولكن لمن تدبره وتعــرف عليــه وتفكر فيه.

بحمله وحفظ حدوده تكون الغبطة والفرح؛ فهو الفضل الذي ليس فوقه فضل، والشرف الذي ليس بعده شرف.

قال ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

وقال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُــوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري – رضي الله عنه –: «فضلُ الله القرآن ورحمته جعلكم من أهله».

وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: «فضلُهُ: الإسلام، ورحمته القرآن».

نعم إنه خير مما يجمعون من الذهب والمال والمتاع؛ لأنها تفنى، ويبقى فضل القرآن قائمًا إلى يوم القيامة.

قال ﷺ: «**اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يــوم القيامــة شــفيعًا لأصحابه**».

بل ويمتد فضله إلى أبعد من ذلك وأبقى: إلى مرتبــة عاليــة يحسده عليها الأولون والآخرون.

قال ﷺ: «**يقال – يعني لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتـــل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**».

قال بعض السلف:

«صاحب القرآن هو العالم به، العامل بما فيه، وإن لم يحفظـــه عن ظهر قلب، وأما من حفظه و لم يفهمه و لم يعمل به، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم».

قال عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه: «ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن إقامة حدوده».

فالله عز وجل أنزله من فوق سبع سموات للتدبر والتعقـــل، لا لمجرد التلاوة والقلب غافل لاه: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].

والتدبر هو: الفهم لما يُتلى من القرآن، مع حضـــور القلـــب، وخشوع الجوارح، والعمل بمقتضاه.

وصفة ذلك: أن يشتغل القلب في التفكير في معنى ما يلفـــظ بلسانه؛ فيعرف من كل آية معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حـــتى يعرف معناها ومرادها.

يقول الحسن البصري: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم؛ فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار».

فمثلاً يقرأ قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

فعلى كل أحد أن ينظر في أهله: في صلاتهم وصيامهم وأداء ما يلزمهم من حجاب النساء والطهارة؛ فيتفقـــد أهلـــه، ويرعـــاهم بمساءلتهم عن ذلك صغارًا وكبارًا، فالمسؤولية تقـــع في تعلـــيمهم وإرشادهم.

فينبغي على المؤمن: أن يقرأ القرآن بحضور وفهم، همه الفهم لما ألزمه الله من أمر ونهي، ليس همه: متى أختم السورة؟!

بل همه متى أكون من المتقين؟! متى أكون من المحسنين؟! مـــتى أكون من المتوكلين؟! متى أكون من الخاشعين؟! متى أكـــون مـــن الصابرين؟! متى أكون من الخائفين؟!

متى أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة؟! متى أتـــوب؟! مـــتى أشكر؟!

متى أجاهد في الله حق جهاده؟!

متى أحفظ لساني؟! متى أتزود ليوم معادي؟!

متى أكون بزجر القرآن متعظًا؟!

متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟!

فالأمر يحتاج إلى فهم وحضور قلب وعمل بمقتضى الكلام.

قال الحسن: «يا ابن آدم، كيف يرق قلبك، وإنمـــا همـــك في آخر سورتك؟!».

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [البقرة: **١٢١**].

قال القرطبي عن معنى ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**﴾: «يتبعونه حق اتباعه باتباع الأمر والنهي، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بما تضمنه»؛ قاله عكرمة وغيره.

قال عكرمة: أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿**وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**﴾ **[الشمس: ٢]**. أي تبعها.

وكلما أقبل العبد على كتاب ربه إقبال المتدبر المتفهم، الذي يعمل بما فيه، وينفذ أوامره — أورثه هذا العمل زيادة في العلم؛ قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة: **٢٨٢**]؛ فتقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وكما جاء في قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**﴾ [الأنفال: **٢٩**] أي: علمًا تفرقون به بين الحق والباطل.

وبإطالة النظر فيه وجمع الفكر على معاني آياته: يطلع العبد على معاني الخير والشر، وعلى حال أهلهما، ويَحْضُرُ بين الأمم، ويرى أيام الله فيهم؛ فيرى غرق قوم نوح، ويعلم صاعقة عاد وثمود، ويعرف غرق فرعون وخسف قارون، بتدبر القرآن، يعيش المرء مع الآخرة كأنه فيها، ويغيب عن الدنيا كأنه خارجٌ عنها؛ فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فيا لله ما أقل أهله وعارفيه! فلو ذهبنا نبحث عن عارفيه العاملين بما فيه بحق وصدق، لأعيانا الطلب.

والواقع: أن الناس اتخذوا هذا القرآن مهجورًا واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ؛ صحف ومجلات، وقصـــص وحكايـــات تموج بها الدنيا صباح مساء، وهو والله كما قال تعالى: **﴿وَإِنْ تُطِـــعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** [الأنعام: ١١٦]، **﴿وَمَـــا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾** [يونس: ٣٦].

لقد قصَّر جمعٌ من المسلمين مع كتاب ربهم حتى إن الواحـــد منهم يختم القرآن كله، ثم يخرج منه بمثل ما دخل؛ ما فهـــم مـــن معانيه شيئًا، ولقد قَصَر جمع من المسلمين برَّهُمْ بالقرآن علـــى أن تُتْقَن مخارج حروفه فحسب، أو يردَّد في المآتم، أو يعلق في المجالس والمداخل، أو يسأل به المال والجاه، أو يعلق تميمة على الرقاب، أو يعلق على الصدور.

قال الفاروق — رضي الله عنه -: «يا أيها الناس، إنه أتى علي حين وأنا أحسب أنه من قرأ القرآن أنه إنما يريد به الله وما عنـــده؛ ألا وقد قيل لي: إن أقوامًا يقرؤون القرآن يريدون به ما عند الناس؛ ألا فاقرؤوا القرآن وأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بعملكم».

فكم من قارئ يقرأ القرآن والقرآن يلعنه! وكم من ظـــالم أفـــاك متجبر يقرأ القرآن يعلن نفسه؛ **﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** [هود: ١٨].

ويكذب ويقرأ: **﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾** [آل عمران: ٦١].

سبحان الله! ما بال قلوبنا، يا عباد الله! ما هذه القسوة عند تلاوة كتاب الله؟! ما هذه الأقفال التي على القلوب؟! مواعظ تتلى، وعـــبرٌ تسمع، وسورةٌ تقرأ، ولكنها تدخل من اليمنى وتخرج من اليسرى!!

من منا يبكي عند قراءة الحاقة؟!

من منا يرتجف حين يسمع الزلة؟!

من تاب يوم أن قرأ القيامة؟!

ما هذا الران الذي على القلوب! أقدت قلوبنا من حجر؟!

أما إنه لو أنزل هذا القرآن على جبل، لخشع وتصـــدع مـــن خشية الله، ولكن قست القلوب؛ فهي كالحجارة أو أشد قســـوة؛ **﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِـــلٍ عَمَّـــا تَعْمَلُونَ﴾** [البقرة: ٧٤].

المسائل المساعدة على تدبر القرآن:

١- الإخلاص في طلبه:

فالإخلاص أساس صحة الأعمال والعبادات؛ فينبغي على من أقبل على قراءة القرآن أن يخلص قصده لله في طلب تدبره وتفهمه، ولن ينتفع قارئ القرآن بما يقرأ حتى يخلص النية فيه لله.

فلا يكون قصده التعالي أو الشهرة أو المماراة أو التوصـــل إلى عرض من الدنيا من مال أو وظيفة أو ارتفاع على أقرانه أو ثنـــاء الناس، قال تعالى: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِـــي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾** [الشورى: ٢٠].

وقال ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يبتغي به وجـــه الله تعـــالى إلا ليصيب به عرضًا من أعراض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**».

وقال ﷺ: «**اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامـــة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه**».

المعنى: يتعجلون أجره إما بمال وإما بسمعة ونحوها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أن حملة القرآن أخـــذوه بحقه وما ينبغي له لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضـــهم الله وهانوا على الناس».

فإذا تسرب شيء من ذلك إلى نية القـــارئ فليبـــادر التوبـــة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص وليكن على حذر؛ لأن أول مَن تسعَّر به النار يوم القيامة رجل من ثلاثة: «**تعلم القرآن وعلمـــه وقـــرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: ما عملت فيها؟ قـــال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القـــرآن. قـــال: كـــذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: هو عالمٌ، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ؛ فقد قيل. ثم أُمِرَ به، فسُحبَ على وجهه حتى أُلْقِيَ في النار** ...» الحديث.

٢- تعظيم الله ومحبته:

فكلما عظم الله في القلب وخافه وأحبه، عظم القرآن لـــدي قارئه.

قال ابن مسعود، رضي الله عنه: «لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن؛ فإن كان يحب القرآن، فإنه يحب الله ورسوله».

فعلامة حب الله عز وجل: أن تحب ما يحب وأن تحب كلامه.

قيل لعامر بن عبد قيس: أما تسهو في صلاتك؟ قال: أَوَحديث أحب إلي من القرآن حتى أشتغل به؟! وقد قيل: مناجـــاة الحبيـــب تستغرق الإحساس.

وقال عثمان بن عفان – رضي الله عنه –: «لو طهرت قلوبنا، لما شبعت من كلام الله!».

فما تلذذ المتلذذون، وما تنعم المتنعمون بمثل ما ينعم به متدبرو القرآن؛ فهي لذة المحبين بكلام محبوبهم، وأنسهم به.

ولا يأتي هذا الأمر إلا بالاعتقاد السليم تجاه القرآن الذي هـــو اعتقاد السلف، وهو أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله علـــى قلب محمد ﷺ؛ ليخرج به الناس من الظلمات إلى النـــور، وأنـــه كلماتٌ وآياتٌ متلوةٌ مسموعةٌ مكتوبة، وأي اعتقاد باطل غير هذا يبعدك عن تدبر القرآن والتماس روحه.

قال ابن الجوزي – رحمه الله –: «ينبغي لتالي القرآن العظيم: أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معـــاني كلامـــه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرؤه ليس مـــن كـــلام البشـــر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه».

وذلك أن القرآن هو الدال على الله وعلى محاب الله؛ فلا جرم أن يكون السبيل إلى محبته ورضاه: تلاوته وتدبره.

٣- جمع القلب وحضوره، وإلقاء السمع عند التلاوة:

وهي الخطوة التالية لتعظيم الله؛ فإذا عَظُمَ الله في القلب، عظم

كلامه لديه؛ فيقبل على قراءته بحضور قلب، وإلقاء السمع؛ قـال تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** [ق: ٣٧].

فأخبر الله تعالى أن المستمع بأذنيه ينبغي أن يكون شاهدًا بقلبه ما يتلى.

وقوله: **﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾** المراد به: القلب الحي الذي يعقل عن الله؛ كما قال تعالى: **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾** [يس: ٦٩، ٧٠]؛ فيكون بذلك قد تحقق المحل القابل للتأثر وهو القلب الحي، بعد توفر المؤثر، وهو القرآن الذي هو «الذكرى»، ومع وجود الشرط، وهو الإصغاء **﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾** ثم انتفى المانع، وهو إشغال القلب وغفلته؛ بيَّن ذلك بقوله: **﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** أي: شاهد القلب غير غافل ولا ساه.

فإذا توفر ذلك كله حصل الأثر – بإذن الله – وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر.

قال محمد بن كعب: «لأَنْ أقرأ **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾** و **﴿الْقَارِعَةُ﴾** أردِّدها وأتفكر فيها أحب إلي من أن أبيت أهُذُّ القرآن».

٤– التوبة والابتعاد عن المعاصي:

المعاصي كلها أضرارٌ في الدين والدنيا، وهي من أكبر أسباب مرض القلب وقسوته؛ قال تعالى: **﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين: ١٤].

قال العلماء: الرانُ: هو الذنبُ على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه؛ فيموت.

وصاحب القلب المريض بالمعاصي أبعد الناس عن تدبر القرآن؛ لأنه حجب عن طريق العلم، ألا وهو تقـــوى الله؛ قـــال تعـــالى: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]**.

ويحدثنا ابن الجوزي عن بعض أسباب عدم تـــدبر القـــرآن، فيقول: «ومن ذلك أن يكون التالي مُصرًا على ذنب، أو متصـــفًا بكبر، أو مبتلي بهوى مطاع؛ فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه؛ فهو كالجرب على المرآة: يمنع من تجلي الحق؛ فالقلب مثل المـــرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تـــراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة».

وينبغي على وجه الخصوص: أن يبتعد عن معاصـــي أدوات ووسائل التدبر: القلب، والسمع، والبصر، واللسان؛ فاستخدام هذه الأدوات في الحرام يعرضها لعدم الانتفاع بها في الحق؛ قال تعـــالى: **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِـــنْ بَيْنِنَـــا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]**؛ فالحجاب على العين يمنع من رؤيته، والوقر على الآذان يمنع من سماعه، والأكنة على القلوب تمنع مـــن فهمه.

فكيف يحسُنُ تلاوة القرآن وتدبره وفهمه بعين لوثتها النظرات المحرمة؟!

أو بأذنٍ دنستها الأصوات المنكرة ومزامير الشيطان؟!

أو بلسان نجسته الغيبـــة والنميمـــة، والكـــذب والافتـــراء، والسخرية والاستهزاء؟!

إن القرآن كالمطر؛ فكما أن المطر لا يؤثر في الجماد والصخر، ولا يتفاعل معه إلا التربة المهيأة؛ فكذلك القرآن: لا ينفـــع إلا إذا نزل على بيئة صالحة؛ فتتفاعل معه، ويؤثر بها، وهـــذه البيئـــة في الحواس والقلوب السليمة الطاهرة التي تقبل عليه.

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل؛ فكما أمسك نور بصره عن المحرمات، أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره مَـــنْ أطلَقَ بصره، و لم يغضه عن محارم الله تعالى.

واعلم أن سماع الغناء والموسيقا من أخطر المعاصي التي تمنع من تدبر القرآن:

فما هناك معصيةٌ تبعد عن تدبر القرآن وفهمه أخطر ولا أعظم من سماع الغناء والموسيقا وآلات الطرب واللهو، التي تصد القلوب عن القرآن، وهو من أعظم مكايد الشيطان ومصايده.

والغناء له أخطارٌ كثيرة على القلب، وهو والقرآن لا يجتمعان في القلب أبدًا؛ لما بينهما من تضادّ؛ كما قال ابن القيم، رحمه الله:

حُبُّ الكتاب وحب ألحان الغنا
في قلب عبد لـــيس يجتمعـــان

وقال أيضًا: «قرآن الشيطان لا يجتمع هو وقرآن الـــرحمن في قلب أبدًا».

فالقرآن: يأمر بالمعروف والنزاهة، وينهى عن اتبـــاع الهـــوى وأسباب الغي والشهوات، بينما الغناءُ يأمُرُ بضد ذلك كله؛ يـــزين الباطل، ويهيج النفوس إلى الشهوات والغي، ويشير إلى كل قبيح.

ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء كما يجنبـــهم أسباب الريب.

قال الفضيل بن عياض: الغناءُ رُقْيَةُ الزنى.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الغناء ينبـــت النفـــاق في القلب، كما ينبت الماء الزرع.

فالغناء ينقص الحياء، ويهدم المـــروءة، ويـــؤدي إلى الخفـــة والرعونة.

فبينما ترى الإنسان وعليه سمةُ الوقار والعقل، فإذا سمع الغنـــاء ومال إليه: نقص عقله، وقل حياؤه، وتخلى عنه وقـــاره، فصـــفق ورقص، واهتز ومال؛ إنه لعمر الله يفعل مثل ما يفعله السُّكْرُ؛ فهو صنوُ الخَمْر، وهما رضيعا لبان.

٥- النظر في كتب المفسرين:

ولأن التدبر لا يمكن إلا بالفهم لما يتلى؛ فطريقة فهم القـــرآن بالاطلاع على ما كتبه المفسرون من الصحابة والتابعين والعلماء من بعدهم ممن يشهد لهم بالأمانة أو العلم.

ومن هذه التفاسير: تفسير ابن كثير، وتفسير البغوي، وتفسير الطبري، وهي تعرف بالتفسير بالمأثور.

ويخطئ البعض فيفسر القرآن برأيه بلا علم، وهذا خطر عظيم على صاحبه؛ إذ إنه يؤدي إلى مقت الله عز وجل، ومقت المؤمنين؛ كما قال تعالى: **﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٣٥]**.

وسبب ذلك غالبًا – كما أخبر الله عز وجل: الكِبْرُ الذي يحبس عن طلب العلم والتعليم والسؤال؛ قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]**؛ وقد قال بعض العلماء: «من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ».

٦- اختيار الأوقات المناسبة للقراءة والأمكنة الملائمة:

أما الأوقات فهي التي تتوفر فيها:

١- راحة القارئ.

٢- هدوء باله وفكره، وعدم انشغاله بأمر من الأمور الأخرى.

٣- السكون وعدم الضجيج.

وبالنسبة للمكان: فينبغي أن يكون خاليًا من المنكرات ومما يبعد الملائكة كالصور والأجراس، وأن يكون بعيدًا عن الضجيج والصخب.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه أحسن الأوقات لقراءة القرآن ومنها:

أ- ما كان في الصلاة، وهذه هي أفضـــل الأوقـــات لتـــدبر القرآن؛ قال تعالى: **﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْـــهُودًا﴾** [الإسراء: ٧٨].

قال المفسرون: المراد بقرآن الفجر: صلاة الصبح.

والعبد إذا أقبل على صلاته بحضور قلب وخشوع وتضـــرع، كان في حصن من أذى الشيطان ووساوسه، وكان الله مقبلاً عليه، فيتم له حال التدبر والخشوع.

ب- الليل؛ قال الله تعالى: **﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَـــدُّ وَطْئًـــا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾** [المزمل: ٦].

﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعاته كلها، وكل ساعة منـــه ناشـــئة؛ سميت بذلك، لأنها تنشأ، أي: تبدو.

قال ابن عباس، وابن الزبير: «الليل كله ناشئة».

وقراءة الليل أفضل؛ لأن فيه هَدْأَةَ الناس، وسكون الأصوات، وراحة الجسد، والقلب فيه فارغ؛ فهي أشد وطئًا، أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع للخاطر على التلاوة.

وبالجملة: عبادة الليل أشد نشاطًا، وأتم إخلاصًا، وأكثر بركة، وأبلغ في الثواب.

وأفضل أوقات الليل: وقت السحر حيث ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؛ فينادي عباده؛ فيكون العبد قريبًا من ربه، والقلب محصنًا من أذى الشيطان ووساوسه.

ج- بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس بعــد أن يصــلي العبد أعظم الصلوات، وهي الصلاة المشهودة؛ وهذا الوقت وقــت مبارك رغب الرب عز وجل إلى الذكر فيه، وعظم شأنه في أكثــر من موضع من كتابه العزيز؛ وكذلك ما جاء في السنة من الترغيب في الجلوس للذكر فيه حتى تطلع الشمس، ثم الصلاة بعــدها، وأن لفاعلها أجر حجة وعمرة.

وقراءة القرآن أفضل الذكر.

٧- اختيار المقدار المناسب دون إرهاق مع القراءة علــى مهل وترتيل:

فالمطلوب التدبر والتفهم مهما كان المقدار الذي يقرأ قلــيلاً؛ فلا يكون الهم: كم قرأت من آية؛ بل ليكن الهم: كيــف تعــظ نفسك بالقرآن؟! وكيف تعقل الخطاب؟! ومتى تعتبر؟!

قال أبو جمرة لابن عباس: إني سريع القراءة؛ إني أقرأ القــرآن في ثلاث؟ قال: «لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول».

وأكثر العلماء يستحبون الترتيل في القراءة؛ ليتــدبر القــارئ ويفهم معانيه.

وهذا هو هدي نبينا الكريم ﷺ: قالت حفصة – رضــي الله عنها: «**كان رسول الله ﷺ يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها**».

وفي الصحيحين عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن رجلاً قال: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: «**هذا كهذ الشِّـــعر؛ إن قومًا يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقـــع في القلب فرسخ فيه، نفع**».

وقال العلماء: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جـــزأين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل.

واستحباب الترتيل لأجل التدبر وللإجلال والتوقير، والقـــراءة السريعة تمنع من فهم القرآن فضلاً عن تدبره؛ قـــال عـــز وجـــل: **﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾** [المزمل: ٤]، وقد قال الله عز وجـــل عـــن كتابه: **﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْـــثٍ﴾** [الإســـراء: ١٠٦].

٨- ومن الأسباب المعينة على التدبر:

الاستمرار في القراءة؛ فلا يهجر القرآن؛ قال تعالى: **﴿وَقَـــالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُـــورًا﴾** [الفرقـــان: ٣٠].

والهاجرون لكتاب الله أصناف وأنواع:

فمنه: ترك تدبره وتفهمه.

ومنه: هجرانه والعدول عنه إلى غيره من كلام البشر.

ومنه: هجر سماعه والإصغاء إليه.

ومنه: هجر الاستشفاء والتداوي به.

ومنه: هجر تحكيمه والتحاكم إليه.

فالإكثار من تلاوة القرآن تساعد على تدبره؛ وفي حديث ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «**لا حسد إلا في اثنتين ... وذكر منهما: رجل آتاه الله القرآن؛ فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار**».

ألا إن للقرآن صحبة؛ فصاحب القرآن يرى له شوق إلى تلاوة كتاب ربه كل حين، وصحبة القرآن تصحب العبد حتى تقوده إلى الجنة في درجاتها العالية.

فالحذر الحذر من هجر القرآن، والإعـــراض عنـــه، وإهمالـــه واستبداله بالذي هو أدنى من القصص والكتب والمجـــلات؛ فـــإن عقوبة ذلك شديدة في الدنيا، والآخرة أشد وأبقى؛ قـــال تعـــالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَـــةِ أَعْمَى﴾** [طه: **١٢٤**].

وقال سبحانه: **﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّـــبِيلِ وَيَحْسَـــبُونَ أَنَّهُـــمْ مُهْتَدُونَ﴾** [الزخرف: **٣٦، ٣٧**].

فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين ليضـــله إنمـــا كان بسبب إعراضه وعشوه عن الذكر الذي أنزله على رسوله.

فكان عقوبة هذا الإعراض: أن قيض له شيطانًا يقارنه ويصده عن سبيل ربه، وهو يحسب أنه مهتد.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعل القرآن العظـــيم ربيع قلوبنا، وجلاء أحزاننا وهمومنا، وأن يفتح علينا الفهـــم فيـــه، والعمل به؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا وســـيدنا وإمامنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحابته الطيـــبين الطاهرين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* * * *